

قصة

قصيرة

البحث عن راحة



بقلم:

حسن حجاب الحارثي

حين التقيته لأول مرة لم أكن أتوقع أنني سأقتله، لكنني جزمت بذلك في اليوم التالي للمقابلة الأولى، فحين نزلت من شقتي في الدور العلوي ألفتته ينتظرني إلى جوار «سيارتي» ليخبرني أنني نسيت السيارة مضاءة من الداخل ليلة البارحة، وأن ذلك خطأ جسيم - خصوصاً في الليل - إذ أن هذه الإضاءة تكشف مابداخل «السيارة» وهذا بدوره يغري اللصوص بكسر الزجاج، حتى وإن لم يكن في داخل السيارة مايستحق هذه المغامرة، وأضاف دون أن يتيح لي أدنى فرصة لمقاطعته: ثم إن نسيان هذه الإضاءة قد يؤدي إلى فساد «البطارية» فتضطر عندها لشراء «بطارية» جديدة.. فانظر كم يكلفك نسيان «لمبة» صغيرة من خسائر يا صديقي؟ قالها وابتسم، وقلت في نفسي: هذا الرجل إما أن يقتلني وإما أن أقتله.

هارب من حصادات عدة، أحلم بمكان لا يعرفني فيه أحد، ولا يؤرقني فيه أحد، ولقد أنفقت في سبيل ذلك أسابيع من البحث، حتى اهتديت إلى هذا الحي، في أقصى جنوب الرياض، حي جديد لا يزال السكن فيه مغامرة، ولأدري ما الذي كدّف بي إلى جوار هذا الرجل بالذات، ففي الليلة الأولى لم أستطع أن أرتب شيئاً في البيت، بفضل ثرثرته وحديثه غير المنقطع عن خبرته في الرياض، وقدرته على اختيار الأماكن الهادئة، وكيف استطاع أن يهتدي إلى هذا المكان الجميل في أقصى جنوب الرياض، في حين أن الناس بدأوا يتجهون إلى الشمال، ولكنهم أغبياء ومغفلون، ويقلد بعضهم بعضاً بلا وعي، أما هو فإنه يعي حركته تماماً، ويعرف أين

يضع قدميه بالضبط، حتى إنه اشترى ثلاث قطع من الأراضي في هذه المنطقة، دفع فيها مجتمعه ما يدفع في قطعة واحدة في الشمال. انتصف الليل وهو يثرثر، وأنا لم أنجز شيئاً، وحين طلبت منه أن يساعدني في ترتيب الأشياء قدم اقتراحات قلبت كل ترتيباتي المعدة سلفاً، فهذا المكيف جديد، ومن الأفضل وضعه في المجلس حتى يراه الناس، ولا يهم أن أموت أنا وزوجتي من الحر، والمكتبة لاتصلح في هذه الغرفة - هكذا دون سبب مقنع - وغرفة الطعام التي اخترتها قريبة من المجلس اقترح علي أن أجعلها هي المكتبة، قدم اقتراحات عديدة لم تتل استحساني، فاعتذرت منه بحجة النوم والتعب، وأجلت كل شيء لليوم التالي، وقد بت على يقين تام بأن تركي لقريتي التي تتمشى في شراييني، ومدرستي التي تسكن بجدرانها وحجراتها وممراتها وحصاها ورملها في أوردتي، وبيتي الجميل الذي انفقت في بنائه أربع سنوات من عمري كان ضرباً من الجنون، مع أنني لم أكن أراه كذلك وأنا أترك قريتي طائعاً مختاراً وانتقل بزواجتي وعملي إلى الرياض.

يومها اهتمت كل القرية، واتهموني بالجنون والتهور، إذ كيف أترك قريتي التي يعلم الجميع أنني أحبها حد الهوس، وبيتي الذي ينظر إليه الجميع على أنه أجمل بيت في القرية، ومدرستي التي لاتبعد عن بيتي إلا خطوات، كيف أترك كل ذلك وارتحل طائعاً مختاراً دون أن تكون هناك ضرورة ملحة أو إجبار من أي جهة، وكنت في بعض الأحيان أصل إلى هذه النتيجة، وأشار أهل القرية في رأيهم - بيني وبين نفسي فقط -

لكنني كنت قد خطوت خطوات في طريق النقل لم يكن من السهل التراجع عنها.

كان اسمي قد ظهر في الصحف ضمن الأسماء المنقولة إلى الرياض، وكنت لكثرة النصائح والانتقادات والتدخلات والتحليلات التي حاصرني بها أهل القرية قد عزمت على ألا أترجع، فلا أحد منهم يدرك أنهم هم الذين دفعوني إلى ذلك، وأجبروني على أن أترك عمراً كاملاً من الذكريات والأحلام وأرحل.

لم يشعر أحد منهم بما أعاني، ولم يدركوا أي درجة من السأم قد بلغت، كانت الأيام متشابهة والوجوه متشابهة، والكلام متشابه.

عشر سنوات من الاستقرار والركود والأحلام المؤجلة.

عشر سنوات من الزواج الذي لا يثمر، والأسئلة المكررة والنصائح المعادة:

(لماذا لم تنجبوا حتى الآن) (العيب منك أو منها) (يا أخي، تعالجوا.. الطب تقدم وليس هناك شيء صعب هذي الأيام) (تزوج يا أخي، الشرع حل مثني وثلاث ورباع) (يقولون هناك دكتور ممتاز في جدة اذهبوا له.. يمكن.. ربك كريم).

عشر سنوات والكلمات المسنونة تبكي زوجتي كل ليلة، والعيون الحادة تنتظر إلا إلى بطنها تبحث عن التكور المنتظر، وتزور مشفقة أو شامتة.

عشر سنوات وهم يمضغونني في جلساتهم الليلية، ويقذفونني مع آخر غصن بكلمات باهتة مكررة: (بيت كبير عيبير وما فيه ولا جاهل.. مسكين، الله يرزقه)

كان لابد أن أقذف حجراً في البركة

الراكدة، وأن أشغلهم بقضية جديدة يمضغونها في الأعوام القادمة، كان لابد أن أرحل تاركاً خلفي عمراً من الذكريات والأحلام المؤجلة.

كان السفر مجرد فكرة عبرت كغيمة، لا أدري كيف استوقفتها واستمطرتها سيلاً من الهواجس والأفكار والرؤى أغرقنتني، وحفرت داخلي نفقاً لم أعد أدري كيف ارتقه.

قذفت حجراً في البركة الراكدة ورحلت، لكنني كنت غيباً حينما اخترت «منفوحة» من كل أحياء العاصمة مقراً جديداً لإقامتي.

لقد بدت وكأنها نسخة أخرى من القرية، ووجدتني محاطاً من جديد بعدد كبير من أبناء قريتي والقرى المجاورة، يغمروني بحب لا أريده، ومودة لم أجيء بحثاً عنها، ويحاصرونني بالنظرات نفسها، والأسئلة، والنصائح ذاتها، ووجدتني من جديد لأستطيع التحكم في وقتي، فلا أستطيع أن أقرأ متى أريد، وأنام متى أريد، وأسهر متى أريد، محاصر أنا بالأحبة حتى في العاصمة التي هربت إليها؛ لكي لا أضيع في صخبها، وأنفي نفسي - مختاراً - في ضجيجها، ذرة ضائعة لا تريد لأحد أن يهتدي إليها، لذلك كان لابد أن أبحث عن مكان جديد لا يعرفني فيه أحد، ولا يؤرقني فيه أحد.

استغرق نقل العفش وترتيبه في البيت الجديد ثلاثة أيام، وكان بالإمكان أن يستمر شهراً كاملاً لو أنني طاوحت جاري العزيز، لكنني كنت صارماً معه، وفي كل مرة يلتقيني عند الباب ليعرض خدماته المجانية كنت أعترت له، وخلال الأيام الثلاثة الأولى كنت قد عرفت كل شيء عن جاري العزيز: اسمه كاملاً،

عائلته، مقرهم الأصلي، مقرهم الحالي، تاريخ زواجه، أسماء أولاده وبناته، تواريخ ميلادهم، الأماكن التي سكن فيها في الرياض، عمله، زملاؤه في العمل، حتى دوراته التدريبية عرفت بها بتواريخها وأماكنها، وكنت ألتزم الصمت إزاء كل تلك الإيضاحات، لأنني بطبعي لم أكن أحب الحديث عن نفسي، ولأحب أن أكون دفتراً مفتوحاً بهذه الصورة، ثم إنني لم أكن أريد للحديث بيننا أن يتصل، وللعلاقة بيننا أن تستمر، حتى إنني حذرت زوجتي من التعرف على زوجته، أو النزول إلى شقتهم، حتى ولو زارتها ألف مرة، ورغم كل الاحتياطات التي اتخذتها كنت ألقاه دائماً، ألقاه وأنا صاعد إلى شقتي وأنا نازل منها، وأنا خارج من المسجد وفي البقالة، وفي كل مكان أذهب إليه - عدا المدرسة - حتى شككت أن هذا الرجل يراقبني، وفي كل مرة كان يقدم لي معلومة قيمة، ونصيحة ثمينة يجب أن أحتفي بها؛ لأنها نتاج خبرة «أبي بدر».

«أبوبدر» الذي إذا قال فعل، و«أبوبدر» دائماً يقول ويقول، وأنا أترجم مقولاته وحدي.

أه ياسكني القديم أين أنت؟ أين أنتم يارفاقي الذين هربت منكم؟! طوال عمري وأنا أحلم بالوحدة، وها أنذا أجدها الآن في هذا الحي النائي إلى جوار «أبي بدر» الذي يحاصرني صباح مساء بنصائحه المملة: فالبقالة التي إلى جوارنا يجب ألا أشتري منها لأن صاحبها «روحه في أنفه»، كما يقول «أبوبدر»، وكل يوم أجده فيها وإمام مسجدنا عجول، ومن الأفضل أن نصلي مع إمام آخر يتأني في صلاته، ومكيفاتنا تهدر طوال الليل

وهذا أخطر على الصحة؛ لأن الفريون كما يقول أبوبدر «يكسر العظام ويأتي بالزكام» وباب العمارة إذا نسيته موارباً أتى لي بعشرين قصة لأناس تركوا أبوابهم مفتوحة وحدث لهم مأس يدمي لها القلب، وإذا أغلقتهم وهو في الخارج أيقظني بعد منتصف الليل لكي أفتح له، ليعاتبني بنبرة لاتخلو من تقريع: كيف تغلق الباب ونحن في بلد الأمن والأمان؟ هذا عدا النصائح الصغيرة التي يقدمها لي في كيفية التعامل مع زملائي في العمل، ومع رئيسي ومع الناس جميعاً، وكل ذلك من واقع خبرة أبي بدر، أبي بدر الذي أمض عيشي، حتى إنني قررت أن أقاطعه نهائياً وألا أتحدث معه، وحين نزلت زاماً شفتي على قرارتي لأفاجئه به قبل أن يتفوه بنصف كلمة، لم أجده هذه المرة ووجدت على بابه ورقة مذيبة بتوقيعه كتب فيها: «جاري العزيز: أنا مسافر لمدة أسبوع فأرجو ألا تنسى الزرع الذي في الأحواض الخارجية من الماء، ولكن إياك أن تسقيه في منتصف النهار، لأن الماء قد يتبخر قبل أن يرتوي الزرع» بلعت غيظي، وعدت وأنا مصمم على الرحيل من هذا البيت وليكن ما يكون.

لم تكن زوجتي سعيدة بانتقالنا إلى هذا الحي المعزول، كانت قد ألفت في الحي الأول بعض الجارات، وأنست بهن في غربتها، ولذلك غالبت ضحكة شماتة بعد قراءتها للرسالة التي تركها جاري، ثم أطلقت لضحكته العنان وقالت:

- أنت اشتريت الهم.
- اشتريته وسأبيعه بأرخص الأثمان.

- ولكن ذلك سيكلفنا كثيراً.

- ماذا؟ إيجار نصف عام؟ نقل العفش من جديد؟ تعب أسبوع؟ كل ذلك لايهم مقابل راحتي التي أشتريها بكل أموال الدنيا.
- لاليس هذا هو الحل، أنا أرى أن تصبر حتى تنقضي مدة الإيجار وبعدها ننتقل، اسمع مشورتني ولو مرة واحدة في العمر.
- ولكنني لم أعد أحتمل، رؤيته وحدها تغمني.

هل تصدقن البارحة كدت أخنقه بيدي هاتين؟
قالت زوجتي وهي تغالب ضحكته: لماذا؟

- لأنه على ما يبدو متفرغ لي، ولا هم له في هذه الحياة إلا نصحي وتوجيهي، فحين رأيته في البقالة تظاهر بأنه لم يرني، ولكنني ما إن وصلت إلى سيارتي وركبتها حتى وجدته واقفاً أمامي، أتدري لماذا؟ ليتفرج عليّ وأنا أبحث كالمجنون عن مفاتيح السيارة، ثم أخرجها من جيبه بعد أن رأيته مبتلاً بعريقي، وناولني إياها ضاحكاً ومحذراً من تركها مرة أخرى داخل السيارة، لأن ذلك خطأ جسيم يؤدي إلى كوارث، وحكى لي قصة لأحد أقربائه ترك مفتاح السيارة فيها وزوجته داخلها، وحين عاد لم يجد السيارة ولا زوجته، وحتى الآن لم يعثر لهما على أثر، ثم حكى لي عن شخص آخر نسي المفتاح في سيارته وفيها أطفاله الثلاثة، وحين عاد وجد السيارة في منتصف الطريق وقد عجنتها شاحنة هي وأطفاله الثلاثة، وحكى، وحكى، حتى كدت أن أتقيأ، فبلعت غيظي وتركته، قومي يامرأة قبل أن يعود من سفره، أعدي العدة ولترتحل.

كان قرارتي نهائياً وحاسماً، إنني

أشعر بالراحة الآن في هذا الحي الهادي، بالفعل تفصلني عن مقولات «أبي بدر» أكثر من أربعين كيلو متر، أنا في أقصى الشمال وهو في أقصى الجنوب، أنا في حي «الازدهار» وهو في حي «العزيزة» فكيف سيصل إليّ؟ لم أكن أتوقع مطلقاً أنه سيصل إليّ إلا حين فتحت الباب ورأيتته واقفاً أمامي يحمل في يده «قدراً» كنا تركناه عنوة قبل أن نرحل لأنه قديم ومحترق.

كيف عرف بيتي الجديد؟
هل تابعتني وأنا أخرج من المدرسة حتى وصل إلى هنا؟
لا بد أن هذا الرجل يراقبني وإلا كيف وصل إلى بيتي بهذه السرعة؟
لماذا يصير هذا الرجل على تنغيص عيشي؟

انتزعني من حصار الأسئلة وهو يدفع «القدر» في صدري قائلاً: وجدته على الدرج، وتوقعت أنكم نسيتموه فأحضرت «الجيران لبعض» على فكرة: قل لأم العيال إذا طبخت لاتثرثر كثيراً في الهاتف حتى لاتحرق لك كل القدور، ثم أضاف مستغلاً ذهولي ودهشتي: بالمناسبة لماذا قلدت الآخرين واتجهت إلى الشمال مع أنه أغلى؟

انتزعت القدر من يده، وقذفته به بكل قوتي، ودخلت بسرعة لأحضر مسدسي وحين عدت لم أجده، فانطلقت أجري خلفه.. كان غبار سيارته مايزال عالقاً في الجو تغطي سحابته الداكنة بيتي الجديد، وكانت طلقات مدوية من مسدسي تسافر خلفه في فضاء حي الازدهار.

* أديب سعودي.. وأستاذ بكلية المعلمين بجازان